المقالــة السابعــة

" السلــوك العدوانــي الإسرائيلــي "

تحت هذا العنوان ذكر الكاتب : "لم يعد من الممكن الصمت، بل إن الصمت أضحى جريمة. يجب أن يعلم كل مصري ذلك الذي يحاك حوله. هناك حرب قادمة في هذه المنطقة، التي تنتمي إليها إسرائيل ومن خلفها الصهيونية، وحولها تقف جميع القوى الدولية، راضية وسعيدة تعد لحرب كاسحة في هذه الأرض التي ورثناها عن آبائنا، والتي لن يستطيع أحد أن ينكر علينا الحق في الاستئثار بها وطرد كل من تخول له نفسه أن يضع قدمه فيها، هذه الحرب القادمة تُعد لها جميع القوي التي تناصبنا العداء، بل وكذلك أولئك الذين يتظاهرون بالصداقة، لا يجوز أن تخدعنا ألفاظ (ميتران) الرئيس الفرنسي المعسول، إنها نفس القصة التي ساهمت فيها فرنسا عام 1967 عندما حذرت الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ومنعته من أن يبدأ بالضربة الأولي، ولماذا نذهب بعيداً، أليس حزب (ميتران) وأساتذته وزملائه هم الذين قادوا أوروبا ضد مصر عام 1956 ؟ وأليس (جي دي موليه) هو الأب الروحي، وذلك دون الحديث عن (منديس فرانس) ؟ وهل يستطيع (ميتران) أن ينكر إعجابه بتل أبيب، التي كان أول رئيس جمهورية فرنسي يزورها ويقدم لها هدية المساندة في المفاعلات النووية، التي لن تحصد سوى رؤوس المصريين ؟ وأليست ألمانيا الغربية هي التي تبني الأسطول الجديد لاسرائيل، والذي سوف يصول ويجول في البحر الأحمر، وشرق البحر المتوسط، بل وقد يكون مصدراً لإطلاق قذائف جرثومية في صحراء مصر الشرقية، لتتجه إلى استئصال الحياة من وادي النيل ؟ ولكن مهلا فسوف نرى كل ذلك في حينه بالتفصيل الكافي.

الذي يعنينا هو أن نصرخ محذرين قياداتنا وهي تجلس صامته تنتظر الضربة وهي تدعو ربها فقط الا تصيبها في مقتل، كل حاكم في العالم العربي لم يعد يعنيه سوى أن يُنقذ رأسه، ويعيش ما تبقي له من عمر في يسر ورفاهية. لقد تحولت قياداتنا إلى أغنام، لا

يعنيها الا أن يُذبح غيرها، من أين أتت تلك القيادات المخوخة ؟ لقد أفرزتها ثورة جمال عبد الناصر، علّم قياداتنا الجبن، وغرس في نفوسهم الخوف، وأحالهم إلى نعاج، لا تُتْقن الا فن الصياح. إنه هو الذي أثبت هذه العناصر الهشة في جميع أنحاء العالم العربي، فهو أذل قيادات مصر الخالدة بدلاً من أن يرفعهم إلى مصاف مصر، أُم الحضارة، نزل بمصر إلى مستوى بدو الصحراء وهكذا كانت الكارثة، إسرائيل تلعب أساساً على هذه الورقة.

منذ أكثر من عشرين عاماً، ظهر علم جديد في نطاق التحليل السياسي للسلوك الجماعي نستطيع أن نسميه علم الحرب. محور هذا العلم هو السؤال: لماذا يشن مجتمع معين الحرب علي مجتمع آخر ؟ ما هي العوامل المختلفة التي تفرض على مجتمع معين أن يناصب مجتمعاً آخر العداء، بل وأن يسعي بكل وسيلة لاستئصاله ؟ هل هي فقط مشكلة صراع من أجل الحياة، أم أن هناك متغيرات دفينة أكثر عمقاً من مجرد الخلاف أو التنافس على قطعة أرض، أو على مصدر من مصادر الثروة ؟ هذا السؤال طرحه الفكر السياسي قبل ذلك، ومنذ الحرب العالمية الثانية بخصوص السلوك الألماني خلال القرنين الماضيين، فالمجتمع الألماني وقف من المجتمعات الاخرى المحيطة به، وبصفة خاصة المجتمع الفرنسي، ورغم الوحدة الحضارية والتماسك التاريخي بين المجتمعين خلال العصور الوسطي، موقف العداوة العنيفة حتى أن القرنين التاسع عشر والعشرين لا يعرفان سوى حروب متتابعة، بين المجتمع الألماني وجيرانه الفرنسيين، تميزت بالعنف والتعدي الذي ليست له سوابق مماثلة، خلال فقط قرابة ستين عاما عرفت فرنسا ثلاثة اعتداءات لم تعرف لها مثيلا من قبل: (حرب السبعين) ثم (الحرب العالمية الأولى) وأعقبتها (الحرب العالمية الثانية)، ورغم أن أي محلل كان موقنا بأن هذه الحروب لن تنتهي الا بالهزيمة لألمانيا، لأسباب متعددة ليس هذا موضع التفصيل بخصوصها، فان المجتمع الألماني كان في اللحظة التي يشعر فيها بأن أبواب النصر قد أوصدت أمام الجيش الألماني نجد هذا المجتمع يبدأ يستعد لحرب قادمة. الظاهرة تتكرر في صورة أخرى، ولكن لتعكس نفس النموذج من جانب الشعب الياباني، طيلة القرن العشرين، وحتى الحرب العالمية الثانية كانت هذه الأمة التي هي تاريخياً جزء من الحضارة الصينية، مصدر اضطرابات واعتداءات على جميع شعوب شرق آسيا، وبصفة خاصة الشعب الصيني.

الفكر الأمريكي بمنهاجيته السلوكية طرح السؤال: لماذا توجد هذه الشعوب التي يسيطر عليها السلوك الاستفزازي والعدواني وتصير مصدراً دائماً للكوارث والحروب، بل وفي بعض الأحيان دون سبب وجيه مقنع ؟ هل هو الطابع القومي ؟ هل هو الخصائص الجماعية للفرد التي تجعل ذلك المجتمع يسلك بطريقة حيوانية لا تجد لها تفسيراً الا في غرائز وحشية تميز مثل ذلك المجتمع ؟

يحدثنا كاهن العالم الأمريكي الأشهر ؛ الذي كان في لحظة معينة على رأس «راند كوربوريشن» عن الأبحاث العديدة التى قام بها هو وفريق أمريكي من الباحثين في المجتمع الياباني، لاكتشاف خصائص ما أسماه العقلية اليابانية.

لا تعنينا بهذا الخصوص التفاصيل ؛ ولكن الذي يعنينا أساسا هو تحليل ما يسمي السلوك العدواني، الذي هو أحد ما يميز هذه الشعوب، التي تعودت أن تشن الحرب بسبب أو دون سبب وأن تسلك في تعاملها القتالي سلوكا معينا لا يستطيع المجتمع المتحضر أن يتقبله.

المجتمع الاسرائيلي والسلوك العدواني:

ونسرع منذ البداية لنحدد، بأن المجتمع الاسرائيلي هو تطبيق صريح واضح لهذا السلوك العدواني. وهذا يقودنا إلى تحديد أحد الأسباب الأساسية التي سوف تفرض الحرب في منطقة الشرق الأوسط، بل وتقودنا إلى القول وعن قناعة بأنه طالما وجدت إسرائيل في المنطقة فانها لن تتخلي عن السلوك العدواني الذي يعني الحروب المستمرة، إسرائيل يجب أن تقلم أظفارها وكما فعلت الولايات المتحدة مع ألمانيا، وكذلك مع اليابان، فان العالم العربي يجب أن يفعل مع اسرائيل. والتقليم أو التهذيب ليس له سوى منهاجية واحدة، ولكن تفصيل ذلك لا يزال سابقا لأوانه.

السلوك الاسرائيلي هو خاتمة لثلاثة نماذج سلوكية استطاعت أن تندمج في اطار واحد لتقدم النموذج الذي نعايشه، وسوف نعايشه خلال الأعوام القادمة، وهو ما نستطيع أن نسميه سلوك الصابرا.

أ) **أول مصدر تاريخي** هو السلوك اليهودي. اليهودي طيلة تاريخه الطويل، كان شخصاً يتميز أساساً بالإزدواجية والتلون والجبن، اليهودي ظل طيلة تاريخه لا يعرف سوي الإباحية المطلقة، وعبادة المال وعدم الولاء، ولكن بصفة خاصة في أنه لا يعرف أي نوع من القيم والأخلاقيات.

ب) **المصدر الثاني هو السلوك الأمريكي** الذي عاش في جنباته اليهودي وتطبع به. الأمريكي الذي عايشه اليهودي، هو حفيد المجرم الذي هرب من أوروبا وحاول أن يبني نفسه مستنداً إلى القوة البدنية، ولا يعرف أي قيم سوي العنف وسيادة مبدأ البقاء للأصلح.

ج) **المصدر الثالث هو النازية**، في ألمانيا العنصرية عاشت ونبتت القيادات اليهودية، التي صاغت الصهيونية. رغم أن النازية هي التي استأصلت يهود أوروبا، فان هؤلاء لم يتطبعوا ولم يتشبهوا الا بأولئك الذين ذبحوهم.

هذه المصادر الثلاثة، تجمعها صفة واحدة وهي العدوانية، فالهيودي بتاريخه الطويل عدواني، وان احتفظ بتلك الصفة في قناعته. والأمريكي بأصوله الإجرامية، يعبر عن هذه الصفة بوضوح أما النازي فهو يفخر بها.

الدراسة العلمية للسلوك الإسرائيلي:

السلوك الإسرائيلي أخضع لدراسات ميدانية عديدة، بل أن هذه الدراسات بدأت قبل انشاء إسرائيل ومن جانب علماء يهود لهم اسمهم، ولهم وزنهم، ونذكر من هؤلاء على وجه الخصوص العالم الأشهر «لوين» الذي كان أحد من ساهموا في تأسيس الحركة الصهيونية. والعجيب أن العالَم العربي لم يعرف حتى اليوم، دراسة واحدة حقيقية ومتكاملة، عن ذلك الطابع القومي الاسرائيلي، الذي يتعين علينا أن نتعامل معه. ولكن هذا حديث آخر نتركه جانباً ولنا عودة اليه.

فلنلخص النتائج والتي قدمها غيرنا ؛ لنفهم على ضوئها حقيقة التطورات التي يعيشها في هذه اللحظة المجتمع الاسرائيلي:

(أول) هذه النتائج خصائص السلوك اليهودي، اليهودي في قناعته الداخلية تسيطر عليه عناصر ثلاثة: **العنصر الأول** وهو الكراهية الذاتية. **العنصر الثاني** وهو الخوف **العنصر الثالث** وهو السلوك الاستفزازي. الكراهية الذاتية وهي العقدة التي استطاع العالم السابق ذكره أن يكتشفها ويحللها وتجعل اليهودي يكره نفسه. وكلما ارتفع في حياته الاجتماعية ازدادت تلك الكراهية. هذه الكراهية تعكس نفسها على كل ما حوله، أنه ينشر المخدرات، ويشجع الإباحية، بل ويجعلها أحد عناصر سلوكه، نتيجة لهذه الكراهية، وهو في قناعة نفسه خائف جبان، لا يجوز أن يخدعنا حديثه أو تظاهره بالقوة والقدرة. في أعمق أعماقه هو يخاف كل شئ، بل يخاف من نفسه. وهو لذلك استفزازي وعدواني في كل لحظة أو موقف يشعر فيها بأنه أقوي من غيره. لم يعد سراً خافياً، إن مَنْ نشر الإباحية في مجتمع غرب أوروبا وأمريكا؟ هو الصهيونية ومَنْ قاد حركة المخدرات ؟ هم زعماء الصهيونية، ومَنْ يقف خلف الإرهاب الدولي ؟ هم أيضا قادة الصهيونية بما فيهم قادة اسرائيل، لا أزال أذكر حديث المونسنيور بولديللي في أواخر الخمسينات والذي كان يشغل المسئولية الحقيقية عن سياسة الفاتيكان الخارجية وقد قدر لي بحكم اقامتي في دير الفرنسيسكان بروما، التعامل الوثيق معه وهو ينبهني إلى أن مصدر الإباحية التي سوف تعم أوروبا هي الحركة الصهيونية. وسوف تتأكد نبوء ته عقب ذلك بقرابة ربع قرن على لسان نفس قادة الفاتيكان. ولكن هذا حديث آخر ليس هذا موضعه.

(ثاني هذه النتائج) وترتبط بالسلوك الإسرائيلي ، خلال الفترة التي أعقبت انشاء الدولة وحتى هذه اللحظة في النطاق الدولي. إن ما يسيطر على هذا السلوك هو ما أسميناه في بعض مؤلفاتنا «عقدة الاغتصاب» الاسرائيلي، قد تراكمت في وعيه الباطن، نتيجة خبرة المجتمع اليهودي في المجتمعات الغربية، وبصفة خاصة في شرق أوروبا، الشعور الدفين اللاواعي بأن أي شخص ينتمي إلى مجتمع الأغراب، لا يسيطر عليه في التعامل معه الا الرغبة في اغتصابه، وهكذا إذا تقدم يسلم عليه، فهو لا يرى في ذلك الا الرغبة في احتضانه ومنعه من القدرة على الحركة . وإذا أراد أن يقبله، فهو انما يريد أن يعميه، عن أن يرى الأعداء وهم يسعون إلى اغتياله. عندما ذهب الرئيس السادات لزيارة إسرائيل، تصورت القيادة الاسرائيلية وعن قناعة حقيقية أن الرئيس المصري آتى بطائرة مملوءة بالألغام لتفجيرها في الدولة العبرية.

(النتيجة الثالثة) أنه في كل حرب لابد من أن توجد على الأقل دولة تتميز بالسلوك العدواني. هذه الطبيعة العدوانية وحدها هي التي تفرض الصراع، لتحيل العلاقات التي يجب أن تكون سليمة إلى حالة التوتر والصدام، السلوك العدواني لا يعني فقط فرض الحرب، ولكن ما هو أخطر من ذلك السلوك، أثناء وعقب القتال. أنه ينسي جميع القيم ويصير وقد سيطر عليه فقط الرغبة في اذلال من يتعامل معه والقضاء على كل أدمية له.

(النتيجة الرابعة) وهذه هي التي تعنينا على وجه الخصوص: السلوك العدائي يستر خلفه جبن حقيقي. الجبن في مثل هذا السلوك يتضمن في حقيقة الأمر عناصر ثلاثة من جانب صاحب هذا السلوك: فهو يشعر بالتفوق على الطرف الآخر، والقدرة على القضاء على من يتوجه ضده صاحب السلوك العدواني. ولو تصور صاحب هذا السلوك أن الطرف الآخر أقوى منه، أو في مستواه، من القوة فهو لن يسلك سلوكه العدواني، بل ينقلب إلى حمامة وديعة.**(العنصر الثاني)** في هذه الطبيعة الجبانة، هو أنه يُقْدم على سلوكه العدواني بوحشية، لا مثيل لها، بل هو يسحق خصمه دون تردد، وليس لمجرد تحييده أو اثبات تفوقه. لا يسعده الا رؤية خصمه تحت قدميه.

في جامعة**(ميتشيجان)** أن **(أربور)** وفي معمل ديناميات الجماعة أجريت إحدي التجارب بهذا الخصوص، حيث وَضعت مجموعات متعددة من الديوك والفراخ التي تتميز بالشراسة ولكن في مستويات مختلفة من حيث القوة البدنية، فلوحظ أن الأقوى يتجه إلى الأقل قوة يضربه ويصيبه بعنف، وعندئذ فان ذلك الذي ضُربَ لا يحاول حتى الدفاع عن نفسه، أو منازلة من ضربه، واعتدي عليه، بل يتجه إلى الفريق الآخر الأقل منه قوة بدنية ينازله ويصيب. وهكذا دواليك، الأقوى يضرب الأضعف، والأضعف يتجه لضرب الأكثر ضعفاً.

العنصر الثالث وهو الخوف، صاحب السلوك العدواني في قرارة نفسه وفي داخل مشاعره هو خائف، وهو لا يناصب الا من هو أقل منه قوة لانه في جوهره يخاف الآخرين، أنه يعتقد وعن قناعة مرضية بأنه إن لم يفعل ذلك فسوف يخضع عاجلا أو آجلاً إلى نفس المصير الذي يعده هو لخصومه. لا يؤمن إلا بالقوة ولذلك لا يخشى الا من هو أقوى منه .. هذه هي خصائص السلوك العدواني الإسرائيلي.

الرعب والسلوك القيادي في المجتمع الإسرائيلي

اليهودي لم نعرف عنه في تاريخه الشجاعة. عاش دائماً في ذل، وهو يُضرب بالنعال من كل صوب. لم يذكر لنا التاريخ له بطولة أيا كانت. وهو اليوم لم يختلف، يجب أن نفهم ذلك جيداً، في أثناء حرب الأيام الستة كان قائد الدبابة يُربط فيها بالسلاسل. يحدثنا مراسل مجلة (دير شبيجل) الألماني الذي رافق قوات تل أبيب في صحراء سيناء، أنه عندما كانت المعركة تتوقف وتغادر القيادات المركبات المصفحة يحظ بكثير من الدهشة، كيف أن خلف تلك القيادات وأسفلها كان مبللاً وممتلئاً بالروث. وذلك في مواجهة الجيش المصري الذي كان يجري أمامهم حافي القدمين، بعد أن ملأ الصحراء بأحذيته. هذه هي حقيقة اليهودي والتي برزت واضحة في حرب لبنان.

الرعب هو الذي يسود القيادات الإسرائيلية. والرعب سلاح بحدين. فهو يدفع تلك القيادات إلى الاعتماد على السلاح الذي يبرز بوضوح التفوق الاسرائيلي. بل وهو الذي يدفع تلك القيادات إلى نسيان جميع القيم والأخلاقيات، سواء في اختيار السلاح أو استخدامه، جميع القيادات العسكرية، ترفض أو لا تميل إلى استخدام السلاح البيولوجي أو الكيمائي، يقال عادة بأن ألمانيا خسرت حربين، لأنها رفضت أن تستخدم ذلك السلاح. الا القيادات الاسرائيلية والتي كما سوف نري تجعل هذا السلاح محور تنظيمها القتالي، أنه ليس فقط أحد الأسلحة بل أنها أدخلته جزءاً أساسياً في كل تشكيل قتالي، وهو من جانب آخر يدفع بتلك القيادات للمغامرة، التي ليس مردها ومصدرها وضع الحسابات ولكن مصدرها الحقيقي الخوف من أن تفلت من أيدي تلك القيادات فرصة التفوق.

استراتيجية التعامل القتالي في الادراك الاسرائيلي

سبق أن رأينا الأسلحة التي سوف تستند إليها اسرائيل في حربها القادمة، سلاح نووي يصاحبه سلاح كيماوي، يتقدم كلاهما سلاح صاروخي دفاعي، ويرافقهما سلاح بحري ويسيطر على الجميع السلاح النفسي فضلا عن الأسلحة المعتادة التي استخدمت في حروبها السابقة. الذي يعنينا بهذا الخصوص أن نذكر به أمرين:

(الأول) أنه بقدر أن لكل سلاح من هذه الأسلحة استراتيجية محددة بقدر أن هناك استراتيجية عامة تضم جميع هذه الأسلحة في تعامل ديناميكي معين.

(الثاني) أن هذه الاستراتيجية الكلية والشاملة تتحكم، لا فقط في سير المعركة وميدان المعركة وأسلوب القتال، بل وكذلك في لحظة القتال بما يعنيه ذلك من تحديد لأهداف القتال.

فلنقف أولاً أمام استراتيجية التعامل مع كل سلاح، قبل أن نلقي بأنفسنا في مشاكل تحليل الاستراتيجية الكلية الشاملة، التي وحدها تسمح بفهم خصائص الادراك الاستراتيجي الصهيوني للحرب القادمة.

كل من هذه الأسلحة يملك استراتيجيته المستقلة، ورغم أننا لن نتعرض لأي من هذه الأسلحة مؤقتا وبصفة خاصة في ضوء الاستراتيجية الكلية التي تسيطر على استخدام منظومة هذه الأسلحة الخمسة، إلا أننا يجب أن نذكر بعض الأمور:

(الأمرالأول) أن أياً من هذه الأسلحة الخمسة لم يبرز في صورة واضحة في الادراك الاسرائيلي المقاتل، الا عقب حرب لبنان، وقد كان (لشارون) في ذلك دور خطير والذي رغم ابتعاده الظاهري عن وزارة الدفاع يظل هو الممثل الحقيقي للمؤسسة العسكرية في مواجهة القوي السياسية.

(الأمرالثاني) والذي يدور حول الفصل بين السؤالين: متي يجب أن نقاتل ؟ وكيف يجب أن نقاتل ؟ ورغم أن هذا الفصل واضح، الا أنه يجب أن نتذكر أن السؤال الثاني لابد وأن يطغي على السؤال الأول، لأن كيفية القتال، وأسلوب القتال، والسلاح المستخدم، في القتال لابد وأن يفرض قيوده على لحظة القتال . وهكذا فان الفكر العسكري، ومقتضيات الأمن العسكري تنتهي بأن تطغي أو على الأقل أن تقيد من الخيارات السياسية. لقد انتهي الوقت الذي كانت فيه القيادة العسكرية تنصاع لقرارات القيادة السياسية، كما حدث في حرب الأيام الستة أو حرب أكتوبر. أن المستقبل يجب أن نفهمه على ضوء حرب لبنان ودلالاتها.

(الأمرالثالث) أن الأسلحة والأدوات القتالية السابق ذكرها إلى جانب التطور العام في المنطقة، كان لابد وأن تفرض التوسع في مسرح العمليات. فمما لا شك فيه أن دخول الأردن في حرب مع اسرائيل سوف يقود جميع دول مجلس التعاون العربي دون استثناء مصر إلى ميدان المعركة. ووجود اليمن يعني امتداد ميدان القتال إلى جميع أجزاء البحر الأحمر، وبصفة خاصة حيث اليمن الجنوبي، يمثل مركز الثقل بالنسبة للاتحاد السوفييتي،

الذي يواجه إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة والمشاركة السورية سوف تقود بدورها إلى موقف ليبي وايجابي .. وبطبيعة الحال قد يؤدي، ذلك إلى تكتل جميع القوى المتصارعة داخل لبنان. بل أننا سوف نرى فيما بعد أن اسرائيل تخطط لما هو أبعد من ذلك، الذي يعنينا مؤقتاً أن نُذكّر به أن هذا التطور في السلاح المكدس في إسرائيل يرتبط بأمرين:

(الأول) حقيقة الاستراتيجية الإسرائيلية للقتال القادم.

(الثاني) خصائص وأبعاد ميدان المعركة المحتملة.

فلنقف مؤقتاً ليكتمل الحديث حول القنبلة النووية التكتيكية ".

مصادر المقالة السابعة

- KEITH NELSON. Why War, 1979.
- WARREN HOWE Weapons 1981.
- ZORGBIBE Le risque de guerre 1981.
- KAHN armee' ON Thermonu" clear War, 1969.
- BAUDOIN armee' makies 1979.
- PEPPER JENKINS. The geography of peace and war, 1985.